عمانوئيل كنت

نقد العقل المجرد

نقله الى العربية

أحمد الشيباني

الناشر

دار اليقظة العربية

للتأليف والترجمة والنشر

بيروت

اهداء المؤلف

إلى صاحب السعادة

وزير الدولة الملكي ، البارون فون تزيدلتس

سيدي :

إن العمل في مصلحة سعادتكم هو معاضدة العلوم ودفعها قدماً إلى الأمام ، من حيث ان نماءها يكمن فينا ، ونظراً لكون مصلحتكم الخاصة مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بالعلوم ، وارتباطها هذا ، لا يقوم من حيث كون سعادتكم تشغلون منصباً سامياً ، كحامٍ للعلم ونصير له ، بلى ايضاً من خلال علاقة أوثق بكثير من علاقة منصبكم ذاك ، ألا وهي علاقة محب وقاض مُستنار . ولهذا السبب أتقدم بالوسيلة الوحيدة التي أمتلكها للبرهنة على امتناني للثقة الكريمة التي يشرفني بها سعادتكم ، كما لو أنه كان بمستطاعي أنا ايضا ان يكون لدي بعض طاقة من عون في عملكم النبيل .

(ان أي امريء يغتبط بحياة تأملية ، يجد ، برغائب معتدلة ، استحسان قاضٍ رئيف مُستنار ، حافزاً قويا على الدراسات التي تكون عظيمة النتائج ، لكنها بعيدة المنال ، عزيزة المجال ، ولذلك تتجاهلها العيون الخسيسة تجاهلاً كليا (١) .)

واليك ، بوصفك قاضيا كذاك ، والى رعايتك الرؤوف ، أقدم هذا الكتاب واضعا جميع المشاريع الأخرى لمستقبلي الأدبي تحت حمايتكم الخاصة ، وباقيا بعميق احترام .

أطوع خادم لسعادتكم

عمانوئيل كنت

كونغسبرغ في ٢٩ آذار سنة ١٧٨١

---

١ ـ لقد حذفت الفقرة الثانية من الطبعة الثانية ، كما وان الجملة الاخيرة قد جرى تعديلها تعديلا طفيفاً .

ـ المترجم ـ

إهداء المترجم

الى الامير عبد الله بن عبد العزيز

الصديق الصادق الصـــدوق ، المفطور
على كل مكرمة ، الأريض لكل خير ،
العربي فطرة وأخلاقاً وسلوكاً .

احمد الشيباني

بيروت في ١ كانون الثاني عام ١٩٦٥

مقدمة المترجم

-١-

تعمدنا في ترجمة هذا الكتاب استخدام نص الطبعة الأولى ، التي صدرت عام ١٧٨١ ، وذلك رغبة منا (ونحن نعلم بأن هـذا المؤلف الفلسفي الضخم ينقل لأول مرة إلى اللغة العربية) ، في أن نقدم للقارىء العربي أول نص لهذا الكتاب قبل أن يدخل عليه مؤلفه ، في الطبعة الثانية ، أية إضافة أو يقوم بحذف اية فقرة أو تعديلها .

ومن ثم قمنا فأتبعنا هذا الكتاب بملاحق ، يراها القارىء في آخر الكتاب ، وهذه الملاحق تشكل جميع التعاديل والإضافات التي أدخلها كنت على كتابه في الطبعة الثانية . كما وقمنا بالاشارة ، في متن الكتاب ، الى الفقرات التي تناولها كنت بالتعديل أو الحذف ، منبهين القـــارىء اليها بهوامش ، وطالبين اليه مراجعة الملحق الخاص بالفقرة المعدلة ، او المستبدلة . وقمنا بهذا الأمر رغبـة منا في أن نقدم للقارىء العربي ، أكمل نص لهذا الكتـاب ، الذي أجمع الناس على أنـه أعظم مؤلف عرفته الفلسفة الأوروبية .

- ٢ -

لماذا استعملنا كلمة مجرد ولم نستعمل كلمة خالص او محض .

تعمدت ، في ترجمتي هذه ، أن أستعمل كلمة مجرد ، ولم أرغب في استعمال كلمة خالص أو محض ، وذلك انسجاما مني ، كما أعتقد ، وروح المؤلف ، إذ ان كنت يرى في كتابه هذا ان العقل هو ، في نشاطه الرئيسي ونزوعه الجوهري ، مجرد من الحس ، ومتحرر من الحساسية ، وطليق من قيود التجربة . فالعقل ، كما يرى كنت ، ينزع أبداً ودوما الى ربط المشروط بحقيقة كلية غير مشروطة ، وبنزوعه هذا يتجاوز نطاق التجربة ، ويسعى للقيام بتآليف عقلية صرفة ، لا تستند الى زكانات حسية . ولذلك يرى كنت ، ان الوحدة التي يريد أن يبتدعها العقل هي وحدة عقلانية صرفة ، مجردة من كل تجربة وزكانة وحس ، بينما ان وحدة الفهم ، كما يراها كنت ، هي وحدة تتخذ من التجربة ركنا لها ، ومن الحساسية مرتكزاً . ولذلك يخص كنت الميتافيزيقا الطليقة من قيود الحواس بالعقل بالمجرد .

- ٣ -

لماذا استعملت كلمة زكانة ؟

تعود معظم الناس على ترجمة كلمة Intuition بالحدس ، والحدس هو سرعة الانتقال في الفهم والاستنتاج ، ولهذا فانني ارى أن الحدس يُولّد في عمليته هذه الزكانات ، ولذلك فلقد استعملت كلمة زكانة ، وانا راسخ الاعتقاد بأنها افضل كلمة في العربية لترجمة كلمة Intuitton ترجمة تتفق وما يريده كنت او يعنيه ، فالزكانة هي إصابة الظن وصدقه ، وهي شرط ذاتي ، وكنت يرى ان جميع الاشياء هي تصورات ، وليست اشياء بذواتها ، وان حدسنا يُولد زكاناتنا في الاشياء ، وهذه تكون حقائق موضوعية لا بوصفها اشياء بذواتها ، بل بوصفها اشياء تستصورها زكاناتنا التي تولدها عملية الحدس . وهي لذلك خاضعـــة للعمليات الحدسية الذاتية ، اي للزكانات .

- ٤ -

نبذة عن حياة كنت :

تتضارب الروايات في الحديث عن الحياة الاجتماعية لهذا الفيلسوف المارد . فالشاعر الالماني هينريخ هيني يقدم هذه الصورة الكئيبة لفيلسوفنا الجبار فيقول :

« إنه لمن العسير ان يكتب المرء تاريخ حياة عمانوئيل كنت . فهذا الرجل لم يكن له تاريخ ولا حياة . وكل ما هنالك انه عاش حياة آلية رتيبة ، منتظمة ، كعزب عجوز كان يقطن في شارع هادىء منعزل من شوارع كونغسبورغ .

« ولست اظن ان الساعة الضخمة الموجودة في اعلى برج الكاتدرائية ، كانت تؤدي عملها اليومي بشكل ادق او اكثر انتظاما من مواطنها عمانوئيل كنت : فاستيقاظ ، ثم شرب قدح من القهوة ، ثم كتابة ، ثم قراءة للمحاضرات الجامعية ، ثم تناول وجبة من الطعام ، ثم نزهة :

كل شيء في موعده المحدد . وكان الجيران يعرفون ان الساعة قد شارفت منتصف الرابعة حينما كان عمانوئيل كنت يغادر باب منزله ، مرتديا معطفه الرمادي ، حاملاً في يده عصاه الخيزرانية ، متجها نحو طريق شجرة الزيزفون ، وهو الطريق الذي اصبح يسمى الآن – على سبيل الذكرى – باسم نزهة الفيلسوف . »

وقال احد جلساء كنت يوماً :

« ان من يرى كنت في جلساته الخاصة لا يمكن ان يصدق ان يكون مثل هذا الشخص المرح الجذاب هو بعينه مؤلف ذلك الكتاب العميق « نقد العقل المجرد » .

وقال احد مؤرخيه :

« لقد كان كنت نموذجا مثاليا للمواطن العالمي ، والفيلسوف المستقل ، الذي كان ينظر ، الى ما يجري تحت سمعه وبصره من تجارب يُراد بها تحقيق فكرة الدستور الكامل ، بنفس الغبطة التي يشهد بها العالم الطبيعي تجارب قد يكون من شأنها تأييد فرضية علمية هامة . »

وقال كنت نفسه في قصيدة رثى بها صديقا له توفي عام ١٧٨٢ :

« ان ما سيحدث لنا بعد الموت لهو سر مطوي في ظلام دامس ، واما الشيء الوحيد الذي نحن على ثقة منه ، فهو الواجب الذي يتوقع منا الآخرون ان نؤديه » .

وقال كنت ايضا :

« شيئان يملآنني إعجابا : السماء المرصعة بالنجوم فوق رأسي ، والقانون الخلقي في نفسي . »

هذه ومضات قد تلقي شيئاً من ضوء على حياة « كنت » الاجتماعية ، ولا أظن ان حياته كانت على تلك الصور من الترهب ، التي وصفها هينريخ هايني ، ولا بالمفرطة مرحاً كما قدمها أحد جلسائه ، « فكنت » كما أرى ، شديد الرقابة على حركاته وسكناته حتى الجبن ، وكان يعلم أنه يعيش في مجتمع محافظ تعصف حوله أنواء الثورات ، وزوابع التمرد ، وان هذا المجتمع الذي يحيا فيه لن يتوانى في الدفاع عن نفسه ، أمام التيارات التي أطلقتها الثورة الفرنسية ، وان الأمن والاطمئنان الذاتيين متوافران في كبت النفس والتزام الحدود ، والطاعة لولي الأمر ، ولذلك كتب ، بعد ما نشر بحثاً فلسفياً بعنوان « الشر الأصلي » ، هذا البحث الذي نشر خارج بروسيا ، وتسبب في أن يرسل وزير المعارف ، كتاب لوم رسمي باسم الملك الى « كنت » ، وفي صدور الأوامر الى جميع اساتذة جامعة كونغسبرغ بعدم تدريس الفلسفة الكنتية ، أقول كتب « كنت » خطاباً يعتذر فيه عما بدر منه ، ويتعهد بعدم الكتابة أو التعليم في الدين ، وذلك بوصفه « خادماً اميناً لجلالة الملك » فريدريك وليام .

ولد عمانوئيل كنت في ٢٢ نيسان عام ١٧٢٤ ، بمدينة كونغسبرغ الواقعة على الحدود الالمانية الشمالية الشرقية ، من أبوين فقيرين ، إذ كان أبوه يعمل سرّاجاً ، بينما كانت أمه من اسرة فقيرة متواضعة . وقد ذهب بعض المؤرخين ، الى أن أباه ، كان ينحدر من أسرة اسكتلندية هاجرت إلى بروسيا – وهذا ، في رأيهم ، هو السر في الميل الشديد الذي أظهره « كنت » ، في البداية ، نحو فلاسفة الانجليز من أمثال ديفيد هيوم وهتشسون وغيرهما .

وقد نشأ « كنت » في جو مسيحي شديد التقوى . ونظراً لحرص

والدة « كنت »، على تزويد ابنها بالثقافة الدينية، فلقد الحقته، وهو في العام الثامن من عمره، بالكلية الفريدريكية بكونغسبرغ، حيث تتلمذ على يد شولتس، أحد رجال النزعة التقوية Piétisme. وبقي « كنت » يتلقى الدروس في هذه المدرسة، حتى بعد وفاة أمه، الى أن أتم تعليمه فيها قرابة عام ١٧٤٠، وتخرج منها في السادسة عشرة من عمره مزوداً بثقافة لاتينية ممتازة.

ومن ثم التحق « كنت » بكلية الفلسفة التابعة لجامعة كونغسبرغ، حيث تتلمذ على يد « كنوتسن » أحد أتباع « فولف »، وحيث استطاع ان يلم بمذهب « لايبنتز »، وان يضطلع على نظريات « نيوتن ».

وقد أظهر « كنت » خلال هذه الفترة، براعة رائعة في الدراسات اللاتينية.

وفي عام ١٧٤٦ تقدم « كنت » ببحث جامعي صغير تحت عنوان: « آراء حول التقدير الصحيح للقوى الحية »، وهو بحث يظهر فيه تأثر « كنت » بنظرية نيوتن في الجاذبية، كما تتجلى فيه رغبته في التوفيق بين أتباع مذهب ديكارت، وأتباع مذهب لايبنتز، وذلك حول مسألة قياس « القوة المحركة ». وفي ذاك العام بالذات، فقد « كنت » والده الذي كان يعوله، وارغم على تدبر أمور عيشه، فاضطر ان يعمل في التدريس. فاشتغل مدرساً خاصاً لأحد أبناء الأسر النبيلة، وبقي يقوم بهذا العمل قرابة تسع سنوات لدى مختلف البيوتات في بروسيا الشرقية.

وفي عام ١٧٥٥ أصبح « كنت » محاضراً في جامعة كونغسبرغ.

وكان يحاضر في الجغرافيا الطبيعية ، وعلم النفس التجريبي ، والفلسفة العامة . وبقي « كنت » يعمل محاضراً طيلة خمسة عشر عاماً .

وفي عام ١٧٥٥ كتب « كنت » رسالة بعنوان « التاريخ الشامل للطبيعة ونظرية السماء » ، نقد فيها رأي نيوتن القائل : بأن تركيب النظام الحالي للمجموعة الشمسية لا يمكن ان يُفسر إلا عن طريق القوانين الآلية السائدة في الطبيعة ، وقد وضع « كنت » بدل هذا الرأي فرضية تقول بأن النظام الحالي للأجرام السماوية قد تكوّن في البدء بفعل دوران سديم أصلي . وهذه الفرضية تشبه الى حد كبير فرضية العالم الفرنسي الكبير لابلاس ، حتى لقد سميت النظرية السديمية في الأجرام السماوية بنظرية « كنت – لابلاس » في تفسير أصل الكون . غير ان « كنت » حاول ايضاً ، فيما بعد ، ان يثبت وجود كائن مطلق ، استناداً الى ما في الكون من ترابط دقيق بين عناصره ، وما في الطبيعة من قوانين صادقة تشهد بوجود تنظيم حقيقي .

وهكذا ظهرت له في عام ١٧٦٣ رسالة فلسفية هامة بعنوان : « الدعامة الوحيدة الممكنة للبرهنة على وجود الله » . وقد حاول « كنت » في هذه الرسالة ان يهدم بعض المعتقدات الكبرى ، التي كان فولف قد أقامها في ميدان اللاهوت الطبيعي او الغائي . وقد ظهرت له ايضاً ، في ذاك العام ذاته ، رسالة اخرى بعنوان : « محاولة من اجل إدخال مفهوم الكميات السالبة في الفلسفة » . وفي هذه الرسالة يظهر تأثر « كنت » بفلسفة هيوم ، حيث نراه يحاول البرهنة على أن رابطة السببية (العلية) ، هي رابطة ذات طابع خاص ، يخرج بها عن نطاق المنطق ، ومبدأ التطابق ، وذلك ما دام اننا نتصور في

العلية ، ان مجرد وجود شيء ما ، من شأنه ان يترتب عليه وجود شيء آخر .

وفي عام ١٧٦٤ اتبع « كنت » تلك الدراسة ببحث أشد أهمية ، ألا وهو « دراسة في بداهة مباديء اللاهوت الطبيعي والأخلاق » ، وقد ركز « كنت » في هذا المبحث على إظهار الفارق بين الرياضيات وبين الميتافيزيقا ، وقال بأن الرياضيات لا تهتم بالعلاقة القائمة بين الفهم وموضوعه ، وذلك بسبب ان الموضوع لدى الرياضيات هو من انشاء العقل ، فهو موضوع مركب بموجب علاقة تعسفية تستند إلى التصور الواضح وحده دون سواه . وأما الأمر بالنسبة للميتافيزيقا ، فان المهم هو ان نفهم موضوعاً واقعياً ، والمشكلة تتمثل في فهم الصلة القائمة بين مفاهيمنا وبين ذلك الموضوع . ووفقاً لذلك فانه يوجد هناك إختلاف شديد بين المنهج الرياضي وبين المنهج الميتافيزيقي ، فالأول منهما منهج تركيبي بينما أن الثاني هو منهج تحليلي . وقد جعله إهتمامه الشديد بالمنهج الفلسفي التحليلي ، يثير مشكلة العلية مع ديفيد هيوم بأعنف صورة من صورها .

ويجمع مؤرخو الفلسفة على القول بأن كنت قد مر في تطوره الروحي بمراحل ثلاث هي : المرحلة الدغماتية التي كان متأثراً خلالها بنزعة فولف العقلية ، ومن ثم مرحلة الارتيابية التي تأثر خلالها بديفيد هيوم ، وأخيراً المرحلة النقدية ، التي كانت بمثابة رد فعل ضد النزعة الارتيابية السابقة ، والعودة الى نزعة عقلية نسبية .

وظهر لكنت في عام ١٧٦٦ مؤلف ساخر ، أطلق عليه اسم « احلام راء مفسرة على ضوء احلام الميتافيزيقا » ، وحاول كنت في هذا المؤلف

السخرية من أصحاب تلك المذاهب الروحية الشائخة ، التي كانت تقوم على مفاهيم ناقصة وتصورات عرجاء . وقد أظهر لنا كنت كيف ان تكوين التفاسير الروحية العريضة هي مهمة سهلة هنية ، ما دمنا نلجأ الى مفاهيم عفوية ناقصة ، وتصورات غامضة غير محددة . وقد ختم كنت مؤلفه هذا بقوله : « ما اكثر الأشياء التي أجهلها ، ولكن ما أكثر الأشياء التي أنا في غير حاجة اليها . »

وفي عام ١٧٧٠ ، تقدم كنت إلى جامعة كونغسبرغ ببحثه الأكاديمي المشهور تحت عنوان : « في صورة ومباديء العالمين الحسي والعقلي » فاستطاع بهذه الرسالة ، التي وضع فيها دعائم نظريته في المعرفة ، أن يظفر بمنصب الاستاذية في الفلسفة .

وظهرت الطبعة الأولى من كتابه نقد العقل المجرد ، الذي قمنا بترجمته ، عام ١٧٨١ وذلك حينما كان كنت قد بلغ السابعه والخمسين من عمره ، وفي عام ١٧٨٣ ظهر له كتاب آخر يحمل عنوان « مقدمات لكل ميتافيزيقا مقبلة يكون من حقها ان تتخذ لنفسها صفة العلم » .

وفي عام ١٧٨٥ أصدر كتابه المعروف باسم « أسس ميتافيزيقا الأخلاق » وأتبعه في عام ١٧٨٨ بمؤلفه الضخم الشهير باسم : « نقد العقل العملي المجرد » ، والذي جاء متمماً لمذهب كنت في الأخلاق . وفي هذا المؤلف نرى ان كنت ، بعد أن كان يؤمن بامكان قيام الأخلاق على الحس الباطني ، أصبح يؤمن بأنه لا قيام للفلسفة الأخلاقية إلا على العقل وحده ، وذلك نظراً لأن العقل هو مصدر الالزام الخلقي . وقد قال كنت انه يتوجب علينا ان نبني الميتافيزيقا على الأخلاق ، بدلاً من أن نبني الأخلاق على الميتافيزيقا ، وان الطريق الى الإيمان هي الأخلاق .

وفي عام ١٧٩٠ أصدر كنت مؤلفاً جديداً تحت عنوان « نقد ملكة الحكم »، وقد حاول في هذا المؤلف ان يوفق بين العقل المجرد وبين العقل العملي المجرد، أو بين عالم الطبيعة وبين عالم الحرية، او بين الحق وبين الخير، بين ما هو كائن وبين ما ينبغي ان يكون، وذلك عن طريق الالتجاء الى قوة ثالثة حاكمة بالجمال والغائية، وهي ملكة الحكم.

وفي عام ١٧٩٢ نشر كنت بحثاً فلسفياً في « الشر الأصلي »، وكان بحثه هذا بمثابة الفصل الأول من كتاب كان يعتزم نشره بعنوان « الدين داخل حدود العقل »، وقد أثار عليه هذا البحث الملك فريدريك وليام، مما اضطر كنت الى الاعتذار للملك المذكور والتعهد بعدم الكتابة او التعليم في الدين.

وفي عام ١٧٩٥ نشر كنت رسالة صغيرة بعنوان « مشروع السلام الدائم »، وقد تحدث في هذه الرسالة عن إمكان قيام تنظيم سلمي بين الدول الكبرى.

وأصدر في عام ١٧٩٧ كتاباً بعنوان « المباديء الميتافيزيقية الأولى لنظرية في الفضيلة ».

وفي عام ١٧٩٨ نشر كتاباً بعنوان « صراع الملكات » وقد أكد كنت في هذا الكتاب على حقوق العقل في وجه الايمان.

وفي عام ١٨٠٣ أصدر كنت آخر كتاب له، وهو في « التربية » وحينما صدر هذا الكتاب كان كنت قد بلغ التاسعة والسبعين من عمره، وكانت حالته العقلية والصحية في حال من تدهور وانحطاط، إذ انه فقد بصره تماماً، وكاد يفقد ذاكرته، حتى وافته المنية وهو في الثمانين من عمره، وذلك في ١٢ شباط عام ١٨٠٤، وكانت آخر كلمة تفوه بها « هذا

حسن » Est ist gut . وقد اعتبرت وفاته حداداً شعبياً ، فووري التراب ، تحت الأعمدة الخارجية لكاتدرائية كونغسبرغ ونقشت على شاهـدة قبره عبارة وردت في كتابه « نقد العقل العملي المجرد (١) » وهي :

« شيئان يملآنني إعجاباً : السماء المرصعة بالنجوم فوق رأسي ، والقانون الخلقي في نفسي » .

١ – قمنا بترجمة هذا الكتاب وهو الآن قيد الطبع .

– المترجم –

٥

كنت وكتابه نقد العقل المجرد

أجمع الناس ، في الغرب ، على ان كتاب نقد العقل المجرد ، ليس فقط أهم المؤلفات التي وضعها فيلسوفنا ، بل انه ايضاً أعظم مؤلف فلسفي عرفته الفلسفة الغربية من أوروبية وأميركية حتى يومنا هذا . والحق ان هذا الكتاب يعتبر العمود الفلسفي الرئيسي الذي ، ترتكز عليه المدنية الاوروبية ، التي شقت طريقها الى الوجود الانساني ، ابتداء بعصر النهضة ، فالثورة الفرنسية ، فالحروب النابليونية ، فالثورات الاهلية الاوروبية ، فالحرب العالمية الثانية ، فعصر الصواريخ وغزو الفضاء الكوني فـ ... فـ ...

فنظرية كنت في المعرفة وتحليله للذهن البشري ، ووضعه الأسس الحسية للفهم والادراك ، لا تقل أبداً عن نظرية كوبيرنكوس في الفلك ،

ونظرية نيوتن في الجاذبية وإكتشاف البخار كطاقة محركة ، والتفسير الماركسي للتاريخ . وزبدة القول : أن كنت هو المنعطف الحاسم في الفلسفة الاوروبية ، نحو الفلسفة المادية التي يدين بها اليوم كل من المعسكرين الشرقي والغربي ، وان اختلفت مناهجها وتباينت وسائلها . إذ ان المعرفة هي ، في نظر كنت ، أمر يرتكز كلياً على الحساسية والحواس ، أي على الاشياء التي تخضع للشروط الذاتية للنفس البشري ، والتي تكون تكاييف للذهن الانساني .

والحق انه إذا كان جان جاك روسو هو أديب الثورة الفرنسية ، هذه الثورة التي أريد لها ان تمثل انتفاضة الانسان لاستعادة حقوقه ، والتي كانت ، فعلاً وواقعاً ، ثمرة من ثمار الفكر الانجليزي الفلسفي ، فان كنت وخاصة في مؤلفه هذا — نقد العقل المجرد — هو فيلسوفها ، إذ انه الفيلسوف الاوروبي الوحيد ، الذي جعل الكون بأكمله يستقطب الانسان ، وجعل وجود كل ما هو كائن في الكون ، امر يقرره الانسان ، أو بالاحرى يبتدعه ذهن الانسان وتخلقة حساسيته ، **فليس الانسان ، على حد ما أرى في كتاب كنت هذا ، موجوداً في الكون ، بل ان الكون موجود في الانسان** ، اي ان جميع ما في الكون من ظاهرات هي **اشياء ابتدعتها الحساسية لذاتنا** . وهي ليست اشياء موضوعية ، اي انها ليست اشياء بذواتها ، وان حتى قوانين الفراغ والزمان ، ليست سوى القوانين التي تشترعها حساسيتنا ، زد على ذلك ان كنت يرى ، ان الذهن البشري هو الذي يدخل النظام والانتساقية على جميع الظاهرات ، التي يشكل كلها الكامل الطبيعة .

ويقسم « كنت » المعرفة الى قسمين ، وهما : المعرفة البديئيـــة ، والمعرفة التفيئية ، فالمعرفة البديئية هي معرفة تتقدم كل خبرة وتسبقها ، أي انها تكون معرفة غير تجريبية .

ويرى « كنت » ان الفراغ والزمان هما ركنان أساسيان ، لا بـل الركنان الأساسيان للمعرفة البديئية .

ويتحدث « كنت » عن الفراغ ، فيقول في الصفحة ٧٠ من هـذا الكتاب ما يلي :

« إن الفـراغ ليس معنى عـاماً تجريبيـاً ، استخلص من الخـبرة الخارجية . وذلك لأنه كي يتوجب علي إحالة أحاسيس معينة إلى شيء ما خارج ذاتي ، أي إلى شيء مـــا قائم في جزء من الفراغ ، مختلف عن الجزء الذي أقيم فيه ، وأيضاً بغية أن أكون قـــادراً على تصور الأشياء ، بوصفها قائمة جنباً إلى جنب ، أي لا بوصفها مختلفة فقط ، بل ايضـاً بوصفها قائمة في أماكن مختلفة ، لذلك فان تصـور الفراغ يجب أن يكون قائماً وموجوداً قبل ذلك . لذلك فاننـــا لا نستطيع أن نستحصل على تصور الفراغ بواسطة الخبرة ، ومن علاقات الظاهرات الخارجية ، بل انما الأمر على العكس من ذلك ، إذ ان الخـبرة تصبح أمراً ممكناً ، بواسطة تصـور الفراغ وحـده فقط . وان الفراغ هـو تصور ضروري وبديئي ، ويشكل الأساس ، كل الأساس ، لجميـع الزكانات الخارجية » .

و « كنت » يرى ان العقل لا يستطيع أبداً أن يزودنا بمعرفة ،

بالمعنى الحرفي لهذه الكلمة ، مع ان وظيفته هي رد قواعد الفهم الى وحدة ، بواسطة بعض المبادىء ، وان الذي يقوم بتزويدنا بالمعرفة ، هو الفهم .

ويرى « كنت » ان في العقل نزوعاً إلى الوصول الى اللامشروط ، ولكن هذا اللامشروط بالذات ، لا يمكن له أن يصبح معرفة تجريبية ، إذ ان المنطق التحليلي ، لا يستطيع سوى ربط الشرط بشرط آخر ، وليس بمقدوره أبداً أن يربطه باللامشروط ، ولذلك فان المعرفة ، هي في الواقع سلسلة من علل ومعاليل ، وكل علة كانت بدورها معلولاً ، كما وأن كل معلول يصبح ، هو ايضاً ، علة فيما بعد ، وذلك إذا توافرت له إمكانات صيرورته علة ، ولذلك فالمعرفة التجريبية ، لا تعرف بعلة عليا غير مشروطة ، ولم تكن ، بالذات ، وفيما مضى ، معلولاً .

ومما أوردته آنفاً ، يتضح لنا بجلاء ان « كنت » يؤكد على ان المعرفة البشرية ، التي ينتظمها الفهم ، وتنبع من الحساسية وتصورات الذهن ، لا يمكن لها أبداً أن تحيط بالعلة العليا ، أو بتعبير آخر ، بعلة ذاته Causa sui ، أي بالله ، ولهذا يرى « كنت » ، انه إذا كان هناك من دليل على وجود علة ، هي علة ذاتها ، فان هذا الدليل انما يتمثل فقط في نزوع العقل المطلق ، للبحث عن الحقيقة العليا اللامشروطة ، وفي الأخلاق .

ويرى « كنت » ان العقل في نزوعه هذا ، يبتدع لنفسه مخلوقات عقلانية ، لا تخضع للشروط الحسية ، أو بالأحرى ، لا تدخل

في نطاق المعرفة التجريبية ، وقد دعا « كنت » هذه المخلوقات باللاظواهر Noumena .

وهذا هو ما جعلني أقول ، في مكان آخر من هذه المقدمة ، بأن كنت وروسو وداروين وماركس ، وحتى آدم سميث ، هم كل كامل متكامل ، يشكلون المعرفة ، التي تستند اليها المدنية الاوروبية ، هذه المدنية المادية ، شكلاً وجوهراً ، سداة ولحمة ، والتي ترتكز على حد اعتبار « كنت » على الفهم ، وان كان العقل يعارضها في نزوعه المطلق إلى اللامشروط ، ويرى فيها عقبة كؤود في طريقه الى اليقين .

وسيجد القاريء « كنت » في كتابه هذا ، مخاتلاً ذكياً أريباً ، لا بل داهية دهماء في التخلص من مجابهة المواقف الحرجة ، وخاصة بحث العلة لذاتها ، فهو لا يثبت ولا يدحض ، بصورة صريحة مباشرة ، هذه العلة العليا اللامشروطة ، لا بل ان القاريء سيجد ان ميل « كنت » لدحضها هو أشد بكثير من نزوعه لاثباتها ، ومع ان « كنت » قد دعا كتابه هذا بنقد العقل المجرد ، غير ان هذا الكتاب لأجدر به ، أن يحمل اسم نقد الفهم المجرد ، بدلاً تحميله اسمه الحالي .

فالمدنية الأوربية ، هي كما أرى ، لم يدفع بها نزوع العقل إلى اللامشروط ، إلى ميدان الوجود ، بل انني ارى العكس من ذلك تماماً ، إذ انها اندفعت الى الوجود ، بعد أن قضت قضاء مبرماً ،

في ميدان الممارسة ، على نزوع العقل ، وأنكرت عليه الحقيقة الواقعية الموضوعية لمثل هذا النزوع .

ولا غرو في ذلك ، فعندما تكون حساسية الانسان ، المتوجة بفهمه ، هي ، لدى « كنت » ، خالق كل ما نراه حولنا ، وان وجود كل الأشياء يرتبط كلياً بوجود الانسان ، أو بالأحرى ، أن هذا الوجود قد ابدعته حساسية الانسان وذهنه وتصوره وفهمه ، أقول عندما تكون هذه هي الحال ، فلا غرو ان يجد الانسان من المستحيل عليه إطلاقاً ان يحتمل إلى جانبه وجوداً لناظم للكون غير حساسيته ، لذلك فانني اعتقد بأن معرفة المدنية الأوروبية ، تنتهي حيث تبدأ المعرفة الوجدانية الشرقية ، هذه المعرفه ، التي كانت لها اليد الطولى في خلق معظم الحضارات التي شهدتها كرتنا الأرضية .

ولكن هل كان « كنت » حقاً ملحداً ؟

إن من يقرأ هذا الكتاب ، ويتأمل فيه ملياً ، ليلمس ان « كنت » يجاهد جهاد الأبطال ، لصد جحافل الالحاد عن قلعة إيمانه ، ولكن كنت يستسلم ، في النهاية ، أمام جحافل المعرفة الاوروبية ، ويجيء استسلامه على صورة انسحاب من المعركة ، واتخاذ موقف الحياد ، أو بالأحرى ، موقف ذاك المؤمن بذاك الايمان ، الذي جاء وصفه في سفر رؤيا يوحنا ، وفي الاصحاح الثالث منها ، والعدد ١٦ ، والقائل :

وهكذا لانك فاتر ، ولست بارداً او حاراً ، فأنا مزمع ان أتقيأك .

بيروت في ١ | ١ | ١٩٦٥

أحمد الشيباني